الجامعة المستنصرية — المرحلة الثانية/الدراسة الصباحية

كلية الآداب — المادة : علوم الحديث النبوي الشريف

قسم اللغة العربية — الدكتور إسماعيل عباس حسين

المحاضرة الثانية

السنة النبوية الشريفة

السنة في اللغة : إذا رجعنا إلى كتب اللغة لوجدنا أن كلمة ((السُنَّة)) مأخوذة من ((سنّ)). وتأتي ((سنّ)) بمعنى بيّن، يقال: سنّ الأمر بينه، وسنّ الله سنة: بين طريقا قويماً، وكل من ابتدأ أمرا عمل به قوم من بعده فهو الذي سنه (١)، ومصدر ((سن)) السن بفتح السين، والاسم هو السُنَّة، وجمعها سُنن بضم السين، وحكى ابن منظور في لسان العرب جواز فتح السين وكسرها: سَنن وسِنن(٣) وتطلق في العرف الإسلامي على((الطريقة المحمودة المستقيمة))

والسيرة ؛ حسنة كانت أم سيئة ، فسُنّة كل واحد هي ما اعتاد فعله وأكثر منه ، وحافظ عليه ، سواء كان أمرا محمودا أم مذموما ،ومن هذا قول الرسول ﷺ : ((من سن في الإسلام سنة حسنة ، فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء)) .

واختلف أهل العلم في تعريف السنة ، ومرد ذلك الاختلاف إلى اختلاف نظر علماء كل علم من العلوم الشرعية المختلفة إلى السنة ؛ فالمحدّث ينظر إلى السنة من جهة يخالف فيها المؤرخ والأصولي والفقيه وغيرهما ،فالسنة عند المحدثين : هي كل ما أثر عن الرسول ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة ، سواء أكانت خَلقية ، أو خُلقية ، أم سيرة ، قبل البعثة كانت أم بعدها ،والسنة عند المؤرخين وكتَّاب السيرة هي تأريخ حياة الرسول من ميلاده الى وفاته.

والأصوليون نظروا إلى السنة من حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم مشرّع للأمة ؛ ولهذا جاء تعريف السنة عندهم بأنها : كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير مما يصح أن يكون دليلا لحكم من أحكام الشرع ،والفقيه يهمه الحكم الشرعي المستنبط من الحديث النبوي الشريف.

إنّ السنّةَ النبويةَ الشريفةَ هي ما صحّ عن النبي ﷺ من أقوالٍ، وما أُثِرَ عنه من أفعالٍ، وما سُجِّل من إقرارٍ، فهي أقوالٌ وأفعالُ وإقرارُ، وكلّها من السنةِ النبويةِ ، فإذا كان القرآنُ المصدرَ الأولَ للشريعةِ، فالسنةُ هي المصدرُ الثاني لها، والسنةُ هي البيانُ النظريُّ، والتطبيقُ العمليُّ للقرآنِ الكريمِ ، والقرآنُ الكريمُ بمنزلةِ الدستورِ الذي فيه الأصولُ والقواعدُ الإلهيةُ الأساسيةُ، التي لابد منها لتوجيهِ الحياةِ الإسلاميةِ، وهدايةِ البشريةِ للتي هي أقومُ، أمّا السنةُ فهي المنهاجُ النبويُّ الذي يفصِّلُ ما أَجْمَلَ هذا الدستورُ، ويخصِّصُ ما عمّمه، ويقيّدُ ما أطلَقَه، ويضعُ له الصورَ التطبيقيّةِ من حياةِ رسولِ الله ﷺ، وسيرتِه الجامعةِ.

والقرآنُ الكريمُ نفسُه يقرّر أنّ مهمةَ رسولِ الله ﷺ أنْ يبيّنَ ما أنزلَ اللهُ مِن الكتابِ، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: الآية ٦٤] ولولا السنةُ لما عرفْنا كثيراً من أحكامِ الإسلامِ، من عباداتٍ أو معاملاتٍ، ومَن قرأ كتبَ الفقهِ الإسلاميّ بمختلفِ مذاهبِه وجدَ بشكلٍ واضحٍ جداً أنّ معظمَ الأحكامِ مأخوذةٌ من سنةِ النبيّ عليه الصلاةُ والسلامُ، لقد أمرَ القرآنُ بالصلاةِ، ولكنْ لم يبيّن عددَ الصلواتِ، ولا مواقيتَها، ولا كيفيتَها، ولا أنواعَها، من فرضٍ ونفلٍ، ولكنّ السنةَ المطهرةَ هي التي تولّت تفصيلَ ذلك.

وأمرَ القرآنُ بالزَّكاةِ، ولكنْ لم يبيّن كلَّ أنواعِ المالِ الذي تجب فيه الزكاةُ، ولا النِّصابَ اللازمَ لوجوبِ الزكاةِ، ولا المقدارَ الواجبَ، ولا زمنَ الوجوبِ، ولكنّ السنةَ النبويةَ المطهرةَ هي التي حدَّدتْ ذلك كلّه، وكذلك الصومُ والحجُّ والعمرةُ، وشؤونُ المعاملاتِ كلُّها بيّنتْها السنةُ النبويةُ المطهرةُ، فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة هما الركيزتان الأساسيتان لأحكام الدين ، إلا أنه هناك فرق بينهما وهذا الفرق يتمثل في :

القرآن : مُتعبّد بتلاوته ، أما الحديث : فغير مُتعبد بتلاوته .

القرآن : مُعجز بلفظه ومعناه ،أما الحديث : فليس كذلك فهو فاقد لصفتي الإعجاز والتحدي.

القرآن : لا تجوز روايته أو تلاوته بالمعنى ،أما الحديث القدسي : فتجوز روايته بالمعنى .

القرآن : كلام الله لفظاً ومعنى ،أما الحديث : فمعناه من عند الله ولفظه من عند النبي ﷺ .

والسنة النبوية هي آخر برنامج صحيح لحياة الأنسان فتحه الله على عباده من خلال نبيه المصطفى محمد ، وقد أثنى القرآن في موارد عديدة على أخلاقه وسلوكه ومعاشرته للناس ، فقد وصفه في سورة القلم بالخُلق العظيم بصريح الآية الكريمة :" وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ "(القلم٤) وهناك مجموعة من الاعمال المستحبة التي كان الرسول ﷺ يفعلها على الدوام ومن الواجب علينا العمل بها وأيضا التعرف على سيرة حياته وبعض شمائله وجوامع أخلاقه :

فقد كان لطيف الخَلق لين الجانب ، إذا طلع بوجهه على الناس رأوا جبينه كأنه السراج المتوقد ، بين كتفيه خاتم النبوة ،وقد كان ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكر ليس له راحة ،طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها وإذا تحدث أتصل بها فضرب براحته اليمنى باطن كفه اليسرى وإذا غضب أعرض وغض طرفه ، جلُّ ضحكه التبسم ، وكان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر الله ،ولا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها ، وإذا أنتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ويأمر بذلك ، مجلسه مجلس حلم وحياء وصدق وأمانة ولا ترفع فيه الأصوات ولا تُؤبن فيه الحُرم ، يوقّر الكبير ويرحم الصغير ويحفظ الغريب ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه ، وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنَّ على رؤوسهم الطير فإذا سكت تكلموا ولا يتنازعون عنده الحديث ، وكان يبكي في صلاته حتى يبتل مصلاه خشية من الله من غير جرم ، وكان يقول: عليكم بمكارم الأخلاق فإنّ الله بعثني بها وإنّ من مكارم الأخلاق أن يعفو الرجل عمّن ظلمه.

ويصف أمير المؤمنين علي (عليه السلام) الرسول المصطفى (صلى الله عليه و آله) بقوله :" كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه و آله) أَبْيَضَ مُشْرَباً بَيَاضُهُ حُمْرَةً ، أَهْدَبَ الْأَشْفَارِ ، أَسْوَدَ الْحَدَقَةِ ، لَا قَصِيرٌ وَ لَا طَوِيلٌ وَ هُوَ إِلَى الطُّولِ أَقْرَبُ ،لَا جَعْدٌ وَ لَا سَبِطٌ ،عَظِيمُ الْمَنَاكِبِ ، فِي صَدْرِهِ مَسْرُبَةٌ ، شَثْنُ الْكَفِّ وَ الْقَدَمِ ، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤْلُؤُ ، إِذَا مَشَى تَكَفَّأَ كَأَنَّهُ يَمْشِي فِي صَعَدٍ ، لَمْ أَرَ قَبْلَهُ وَ لَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ (صلى الله عليه و آله) " ويُذكر في الإنجيل "إني أنا الله لا إله إلا أنا الدائم الذي لا أزول ،صدقوا النبي الأمي الأكحل العينين، الواضح الخدين في وجهه نور كاللؤلؤ وريح المسك ينفح منه لم يُرَ قبله ولا بعده ،كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام ،طُوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه".

وعندما يدقق الانسان في الصفات الحسنة التي يمتلكها ذلك الرسول العظيم يجده، انه اعظم شخص في آخر سلالة متصلة بالسماء، وهو يعيش في ذاته روح الإنسانية بسماتها الحميدة، واخلاقها الفاضلة، وبنهجه القرآني في التعامل مع امته، كفرد من تلك الأمة المتولدة في تلك البقعة من الأرض، فيأكل مما يأكلون، ويلبس مما يلبسون، ولم يرَ في نفسه يوما ما انه خارج عن هذا الكيان الإنساني المركب من المادة الترابية والروح الإلهية، رغم ما منحه القرآن من خصوصيات ومميزات عالية، فقال تعالى: { وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ } (القلم: ٤).

وهي شهادة من الله العلي الأعلى برسوله الحبيب محمد (صلى الله عليه وآله)، ومدلول الخُلق العظيم عند الله لا يدرك مداه احد من العالمين، وهو ثناء تتجاوب ارجاء الوجود به. ولا يمكن لأحد ان يجعل لها مقياسا في تحديد مفهوم خُلق الرسول (صلى الله عليه وآله)، ان صاحب هذه الرسالة الذي يوصف من قبل الحقّ تعالى بهذه الصفات، رسالته تكون ذات بُعد انساني واخلاقي، تقوم على اساس الموعظة والحكمة والدليل، فلم يكن هناك اكراه لتقبل هذا الدين بعد ان تبين الرشد من الغي. واعتبار التسامح والرحمة والعفو من مداليل قوة الرسالة الإسلامية، وقوة الرسول (صلى الله عليه وآله) في التعاطي مع بعض القضايا التي تحتاج الى اتخاذ بعض القرارات الحاسمة والمنسجمة مع هوية الرسالة الإسلامية، قال تعالى: { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ }. (فصلت: ٣٤).

ومن أقواله صلى الله عليه وآله وسلم :

"أنظروا إلى السائل فإن رقت له قلوبكم فأعطوه فإنه صادق"

وقوله: " نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة "

وقوله: " من أنكر منكم قساوة قلبه فليدنِ يتيماً فيلاطفه وليمسح رأسه ، يلين قلبه بإذن الله ،إنَّ لليتيم حقاً "

وقوله: " من بكى على الجنة دخل الجنة، ومن بكى على الدنيا دخل النار"

وقوله: " ما من عمل أفضل عند الله عزَّ وجل من سرور تُدخله على مؤمن"